الدرس البلاغي الجامعي .. الواقع والاستشراف

د/ جيرن ميهوب

جامعة الأغواط (الجزائر)

ارتبطت البلاغة في الدراسات التداولية/ الجمالية بنمو الفكر التواصلي الإنساني، وتطوّر الكلام البشري، فلا نعدمُ لغة في العالم إلا ولها قوانينها الفنية، وخصائصها الجمالية، تحدّدها ضوابط الأداء الإبلاغي، والبلاغي عند الجماعة التي تتكلُمها. وهذه قضية كان لها من الاجتهاد نصيب شارك فيه أصحاب الفكر والعلم، وأهل النقد والأدب عبر مراحل التاريخ.

وتعدّ البلاغة العربية أنموذجا ثريا اتّسقت معه النظريات اللغوية، التي استهدفت ماهيتها، ووظائفها، ومقاصدها، أين حظيت في التراث العربي بما لم تحظ به بلاغة بشرية أخرى من جهة البحث والاستقصاء، والدراسة والتحليل، دليلنا في ذلك: كثرة المؤلفات البلاغية، وتفرّع مباحثها، وتنوّعها في العصور العربية المتعاقبة، وإن بدا الدرس البلاغي متماهيا مع المباحث اللغوية العامة، المرتبطة بعلوم الدين واللغة والأدب والفلسفة.

لقد تجلّت إرهاصات حراك بلاغي منذ العصر الجاهلي، كشفت عنه تلك المواقف البلاغة والأحكام الجمالية، المرتبطة، في الذائقة العربية، بلغة الإبداع الشعري، وفكرة المفاضلة بين الشعراء، ثم تبلورت هذه الأحكام الانطباعية مع إعجاز القرآن الكريم، وبلاغة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فبلغت درجة من الاستبصار والتمعّن، بل الخلق والإبداع.

وإذا كان من التسليم المطلق أن لغة القرآن الكريم قد مثّلت ذروة الفصاحة والبلاغة، وأن ما كان يصدر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من أحاديث مستندة إلى هذه الروح البلاغية العالية، ممثلة في جوامع كلمه، ونصاعة لغته، وفعّالية أساليبه، بحيث شكّلت مصدرا ثانيا للبلاغة العربية، فإنّ محاكاة البلغاء، وأصحاب البيان لطريقتهما، مضافا إليه ما وصلهم من نماذج رائعة من الشعر القديم، وبعض درره النثرية، ثمّ ما تأثروا به من احتكاكهم بمباحث البلاغة عند الأمم المجاورة.. قد أسهم، بدوره، في رسم معالم نظرية بلاغية عربية لها أصالتها ولها مقوماتها الإبلاغية والجمالية.

لقد كانت البلاغة العربية، وفق هذه المكونات الفنية، طريقا إلى تأسيس شعرية بلاغية عربية لها من التمكين ما قد يوصل إلى درجة من الكمال، يخشى معه أن يتحوّل فن البلاغة إلى علم صارم في قواعده، محدّد في مقاصده، مخوّلا لأن يُدرس لذاته، لا أن يكون ووسيلة فنيّة يتوسّل بها في ترجمة المقاصد الكلامية بما تمثله من

مواقف وعواطف، وغايات تواصلية بالدرجة الأولى، دون أن تحرم البلاغة لذة الكشف عن وجهها الآخر: الدلالي الجمالي.

إنّ البلاغة العربية كثيرة الاجتهادات، متساوقة مع تطوراتها التاريخية، وأبعادها المعرفية، غير أن التطوير والتحديث في البلاغة العربية يبدو مشروطا بالتفعيل اللغوي، وتقريب مفاهيمها الإجرائية؛ لتصل الرسالة – أيّا كان مضمونها – إلى الأهداف المنوطة بها؛ فطبيعة البحث في البلاغة – بهذا المفهوم – وخصوصية المحاور المحدّدة لمقاصدنا منه، قد تدفعنا إلى المضيّ مباشرة لاستهداف الدرس البلاغي العربي في الجامعات العربية، بوصفه: مادة مقرّرة على طلاب اللغة العربية وآدابها؛ ووحدة لها نهجها ومنهجها، واعتباراتها العلمية والتعليمية، فتكون غايتنا الأساسية – عندئذ – : رصد جوانب بلاغية شتى، قد نزعم أنّها ذات صلة بالخطاب البلاغي، ومراعاة طرف أساس في هذه المنظومة البلاغية، ألا وهو المتلقي، بكلّ ما يتسلّح به من مواصفات علمية، ومعرفية، وثقافية.. وبكلّ ما يحمله من استعدادات فنية، وجمالية، وذوقية.

ولا جرم أن الوقوف على حقيقة الخطاب البلاغي، والتلقي الجامعي له، قد يستدعي جانبا من التساؤل/ المساءلة، لا تكاد تحيد عن الفكرة الآتية: ما مدى تواصلية تقنيات البلاغة العربية؟..، وإلى أيّ مدى نعتبر الخطاب البلاغي في الجامعة خطابا مستوفيا شروطه الكفيلة بتلبية رغبة المتلقي في هذه المرحلة؟ مع التركيز على أهمّ شرط في هذه الشروط، وهو: توافر هذا الخطاب البلاغي على تلك الرسالة الفكرية الجمالية التي تجعل منه خطابا فنيا قائما بذاته، له وسائله ووسائطه، من دون أن تقع القطيعة مع العلوم المجاورة له.

إنّ ما توفر لدينا من وسائل وإجراءات في تعليم مادة البلاغة قد تجعل الخطاب/ النص البلاغي (لا نفرق – ابتداءً – بين الخطاب النص؛ لحاجة يستدعيها البحث) قاصرا على أداء وظيفته التي من أجلها وجد، أو يخدم تلك النواحي المتعددة المغيّبة في المتلقي (ونقصد الطالب الجامعي هنا)، إذ لم يعد هذا المتلقي تلك الذات السالبة المستهلكة، التي تسقط جماليات الأمس على جماليات اليوم، أو ذلك الطرف النجيب من المتعلمين الممتثلين لجملة القوانين المعيارية، والقواعد الصارمة عند مقاربتهم للنصوص الإبداعية، أو مدارستهم للمقولات البلاغية.

إنّ مقاصدنا من هذا المبحث هو السعي الحثيث لأن يكون المتلقي للبلاغة فاعلا ديناميا مؤثرا، وهو يقف بين يدي النص، يسهم في تثويره، وزعزعته، ويشارك في تفعيل دلالته، وفتح آفاقه القرائية دون أن يكون ذلك المعطى منغلقا على نفسه، أو يكون ذا توجه أحادي التفسير.

إنّ النص ليسلم نفسه إلى التوجهات القرائية المتعدّدة، وفق مقتضيات الشكل والمضمون، كما يقع – لا إراديا – تحت طائلة التوجه الإيديولوجي الذي يشكّل قناعات الذات القارئة من حيث يدري ولا يدري، لكنّه توجّه حريص على إبقاء تلك العلاقة الوثقى بين المتلقي والنص.

إنّ الذي يهمّنا في هذه التوجهات، وما نتقصّده بهذه الوريقات، هو الشكل البلاغي للنص، الذي يدفعنا إلى ضرورة إيجاد أدوات قرائية جديدة، تمكّننا من التعامل مع مفاهيم موروثنا البلاغي العربي القديم – وهو في

البلاغة العربية الحديثة جزء حيويّ لا محالة – والتجاوب معه من حيث هو مقولات جمالية في أجناس الأدب، وذلك بمحاولة صياغتها من جديد؛ لتتوافق روح العصر، وتتأقلم ومتطلبات المرحلة، ودون أن نجد غضاضة في الاستفادة من المنجزات البلاغية الحديثة، بل المعاصرة، وإيجاد السبل العلمية المناسبة لتذويب المناهج اللسانية الحديثة ذات الصلة المباشرة بالكلام ووظائفه، والاستفادة الواعية من شتى قنوات الاتصال المعرفي التي سيّرتها العلوم الحديثة مجالات مشتركة تخدم بعضها بعضا، ذلك أنّ بلاغة الخطاب البلاغي، وبعده السيميائي، قد نعثر عليها في زوايا تداوليات إنسانية كثرة، وبوسائل قرائية متنوعة، وما نحن إلا جزء من هذه المنظومة التواصلية.

إنّ الولوج إلى كنه هذه المتطلبات، يستلزم بحثا مستفيضا وعميقا، لكن ما نركز عليه في هذا المجال – بالأساس – هو: مدى تطور الدرس البلاغي عبر مراحل برامجيّة متراكمة من عمر تعليمية البلاغة في جامعاتنا، من حيث التحسين المرغوب في كل مرحلة مواكبة للواقع الفكري، والواقع اللغوي، والواقع النقدي، غير أنّ هذه الغاية ليست من اليسر بمكان؛ خاصة، إذا أخذنا بعين الاعتبار ذلك التعدّد والتنوّع الكبيرين في تخطيط البرامج التعليمية، في مختلف جامعات الوطن العربي.

لكن، سنحاول – على الرغم من ذلك – استقراء مرحلة الخمسين سنة الفائتة من عمر تعليمية البلاغة، وهذه المرحلة المستهدفة، هي مرحلة تبلورِ التعليم الجامعي في أقطار عربية شتى، إذ تنعت بفترة "التخطيط الذاتي" في مجالات كثيرة، من بينها تخطيط البرامج الجامعية، وترشيد مناهجها الدراسية (نقول ذلك بكلّ تحفظ، استنادا على حسن نية مخططي هذه البرامج، واعتمادا على صفاء حسّهم الوطني، والقومي، والديني، والحضاري..)، بما يرتبط بالبلاغة (نصا، ومنهجا، وقراءة)، بحيث يكون المسعى هو: مسايرة متطلبات الحياة، ومواكبة تطورها المطّرد.

غير أنّ الأمر– في رأينا – لن يتأتى إلا بالتحديث المتواصل والمتّصل للمناهج والبرامج، والسهر على مراجعته وفق ما يتحقّق، في الضفة الأخرى، من تطوّر في علوم اللغة ومناهج النقد. هذه المراجعة الدورية تجعلنا نقرأ تراثنا البلاغي قراءة مرحلية، تنسجم وروح العصر من جهة، وتحافظ على أصالته من جهة أخرى، كما تجعلنا نطّلع أيضا على ما يستجدّ من تطوّر في الدرس البلاغي، وما يستحدث من مقاربات في هذا المجال.

إنّ ما تشهده المناهج اللغوية المعاصرة من تطور علمي، ومن تطوير لنظرياتها القرائية، قد تحمّس البعض على ضرورة المواكبة بحجة التطور، وهي دعوة صحيحة، جادة في مظهرها، لكن لا يجب أن يغيب عنّا، في خضم هذا الانبهار الحداثي، ذلك الرابط الأساس الذي علينا أن نضعه في الحسبان، ونعني به: ماضي الأمة، وتراثها، وحضارتها، مع عدم تجرّدنا من تلك "الرؤية" التي تتّصل بالمصدر النصي اللغوي الذوقي، القائمة على شرط المحافظة، وبشكل ذكي، على أصالة الصورة البلاغية من حيث: أصالةُ النص نفسه، في أثناء التحليل الخطابي أو الإنتاج النصي.

إنّ هذا الموقف لا يعني – ضرورة – التلقي البلاغي الجامد من غير تفتح أو تجديد، بل يعني: أن نسعى لجعل بلاغتنا العربية صورة لغوية محققة لوجود نص بلاغي متطوّر، قابل للتجدّد، مواكب لجماليات العصر الذي وجد فيه، وليس شكلا محنطا، انتزع من الماضي انتزاعا.

فإذا أمعنا النظر في علم البلاغة، بفروعه الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع، وجدناه، ومنذ نشأته، قد ارتبط بالخواص التركيبية للتعبير اللغوي، بما يقتضيه من تبيان للمعاني، وإجلاء للمباني، وتقريب للدلالة، وتحسين لمعمارية النص، واستظهار للإيقاع، بمثل ما نعثر عليه من مقاصد بلاغية عبر مسيرة هذا الفن/ العلم.

لقد كان على دارسي هذا الفن، من الذين استهوتهم الصورة البلاغية، والتي لا تتجاوز عندهم – غالبا – مستوى التركيب، أو الذين لم يدركوا أنّ النص وحدة واحدة، متكاملة الأجزاء، بمثل ما أدركه (عبد القاهر الجرجاني)، عبر "نظرية النظم"، حين سعى إلى أن يجمع، في بحثه في الدلالة، بين النحو والبلاغة، مقرّا أنّ النص هو جملة معان مقصودة مرتبطة بجنس من الألفاظ المناسبة، منتظمة بحسب درجة أهميتها، ووفق أنساق تركيبية تقبلها طبيعة اللغة، وليست تلك الأنساق إلا المعاني النحوية التي لا تختلف درجة المنظوم والمنثور فيها إلاّ باعتبار الجودة، وسلامة النظم، وحصول الفضل والمزية، وبحسب قدرة صاحبه على ترتيب المعاني، واختيار الألفاظ، بما تؤديه من وظائف نحوية، يتوصل بها إلى رصد الصورة البلاغية، وتحقيق المتعة الفنية. يقول عبد القاهر الجرجاني:

"وأما رسوم النظم، فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ لأنّها لجام الألفاظ، وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس، يتشكل بها البيان"[1].

من هنا، تبدو لنا نظرة الجرجاني إلى النص الأدبي، وهي نظرة شمولية، أساسها: قدرة الناظم – شاعرا كان أم ناثرا – على استجلاء الطاقات النحوية التي تتيحها له طبيعة اللغة؛ لتحقيق الظواهر البلاغية التي تضفي على النص ذوقا فنيا رفيعا، وهو بذلك، يقترب كثيرا مما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة التي نظرت إلى النص، بوصفه وحدة متكاملة، من حيث الأفكار والمعاني المعبر عنها، وهو – في الوقت ذاته – محطّ أنظار الأسلوبيين، باعتباره: الوحدة الأساسية للتحليل الأسلوبي.

إنّ هذا الفهم لحقيقة الخطاب البلاغي، يجعلنا نستكشف القيمة التواصلية للنص المبدع أولا، ثمّ للحكم البلاغي النافذ إلى صلب البلاغة ثانيا، وأهميته ذلك تكمن في: معرفة الصفة الأساسية التي يتحقّق بها فهم النص، والوشيجة الفكرية التي تحكمهما، فيمتنع الانفصال المعنوي والتركيبي عندها. غير أنّ ذلك لا يفند ما كان متداولا بين أكثر علماء اللغة، من مثل أولئك الذين اعتبروا الجملة أو التركيب وحدة أساسية للتحليل اللغوي، لكن ذلك لا يعني – في المقابل – جحد الجهود الواضحة لعلماء البلاغة من أولئك الذين حاولوا رصد الظاهرة وفق أسس علمية موضوعية.

---

[1]– دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص: 36.

إن الدرس النقدي الحديث، بحكم التطور الحاصل، وانفتاح المناهج القرائية، قد حدّد رؤيته إلى النص البلاغي، وأقامها على أساس أنّه: وحدة نصية متكاملة الحدود، ينبغي أن يشار إليها عبر مستويين أساسيين:

المستوى الأول: وهو الأداء العادي للغة، حين تستعمل الألفاظ بدلالتها المعجمية المتعارف عليها في الغالب؛

المستوى الثاني: وهو الانزياح اللغوي الذي يخرق فيها المبدع هذه القاعدة.

فمنتج النص، يحاول أن يستخدم الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة؛ ليحقّق فنية إنتاجه الأدبي. وهذه الرؤية تميّز نوعا من الخطابات عن أنواع أخرى، وتقرّ بوجود خطاب بلاغي أدبي يفترض — من جهته – وجود خطاب بلاغي غير أدبي، ولكلّ من الخطابين مقاييسه التي تميّز أدبيته؛ ذلك لأنّ الخطاب الأدبي/ البلاغي لا يختص بمضمون محدّد، إذ كل الموضوعات والمضامين، التي تشكّلها العوالم المعنوية للغة، بإمكانها أن تكون مادة لمضمون الأدب وبلاغة الخطاب.

إنّ قاعدة اختيار النص تأخذ بعين الاعتبار الإطار الأدبي للخطاب بحيث إنّها:

أولا: تنطلق من رؤية منطقية للرسالة التي يحملها الخطاب؛

ثانيا: تراعي مقتضى حال المتلقي؛

ثالثا: تسعى إلى تحقيق الغاية المرتقبة جراء ذلك؛

رابعا: مراعاة المقاييس المتوفرة في الخطاب حتى يصنف في الخانة المناسبة.

قد نشير، ونحن نؤكد على بعض العناصر التي تدخل في تكوين العلاقة بين المتلقي والرسالة، إلى أنّ العلاقة بين المتكلم والمخاطب هي علاقة أساسية في عملية التواصل، وأنّ ضمان بقائها يفترض شروطا، أهمها:

– أن يكون مفهوم الرسالة في متناول المتخاطبين، وفي هذه الحالة، يجب إمعان النظر في اختيار النص، والتروي في تحديد المحور الذي يستهدف بالدراسة البلاغية.

– مراعاة الإطار المرجعي؛ بكل مكوناته السلوكية والاجتماعية والعلمية، وهذا ما يجعل أوجه الفهم تتقارب، وإن تعدّدت زاوية الرؤية، بل قد تتنوع – أحيانا – تبْعا لتعدّد الآراء والمفاهيم حول النص الواحد، خاصة عندما يتعلق الأمر بالنص الأدبي الإبداعي؛ فالمتلقي المبدع هو محور العناية؛ كونه متلقيا متفاعلا مع النص، يتأثر به، ويؤثر فيه، فينتج نصا على غرار النص الأول الذي يقرأه أو يصدر حكما يوجه فيه المبدع إلى مسلك فني يتوافق مع ما قد يعتقده. فبقدر مطابقة الرموز المتقبّلة، وتوافقها مع سنن المستقبّل، وأحوال المتلقّي النفسية والثقافية، يحصل الفهم وتزداد سرعته[1].

هذه الحقيقة – كما يبدو– لم تكن غائبة عن أذهان القدامى، إذ قد ثبّتها الجاحظ حينما يقول:

---

[1]– غريب الحديث: ابن قتيبة، المقدمة، ص: 48.

"ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[1].

فالبلاغة، كما يظهر من هذا الاجتهاد، هي مراعاة مقتضى الحال، وتوافقها مع مقولة: "لكل مقام مقال"، وهذا المعنى يؤسس لما سوف يعرف – لاحقا – بسلطة المتلقي في علاقته الوثيقة بالخطاب.

هذه الأساسيات – في رأينا – يجب أن تتوفر في النصوص التي نقدمها، سواء أكانت أراء نقف من خلالها على أهمية البلاغة، أم كانت نصوصا مختارة؛ تكشف لنا أسرار الكلام العربي وجمالياته، وذلك بربط المقال مع المقام، ومراعاة الحالات والهيئات الآنية التي يستقيم عليها. فالخطاب لا يكون إلا بقدر ما تكون عليه حال المخاطب.

إنّ هذه الحال تتصل بالبيئة الاجتماعية والثقافية من جهة، وتتصل بالجانب النفسي والشعوري من جهة أخرى، كون "علاقة الذات بالموضوع ليست علاقة جامدة ساكنة، لذلك يجب الإفصاح عنها إفصاحا جليا. وبعبارة أخرى: إننا نجد في علاقة الذات بالموضوع أساسا نظريا متسقا مع القول: إنّ العمل الفني لا يمكن مناقشته – أبدا – بطريقة غير تاريخية، ووفقا لمصطلحات "الجمالية الخالصة"، بل تجب مناقشته – دائما – في سياق محدد"[2].

هذا الخطاب الذي سعت النظريات الحديثة لإعطائه السلطة الكاملة، فتجعل المتلقي شريكا فعّالا، يتمتع بحق "الفيتو" إزاءه، وهو حق يخوّل له تحديد معالم النص، وتجاوزه بلاغيا، وحق الرفض والقبول، وحق توجيه مساره وانتشاره ورواجه، مما يعني: أنّ "النص منفتح، يتّجه إلى القارئ في عملية مشاركة، وليست مجرد استهلاك. هذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة، وإنما تعني: اندماجهما في عملية دلالية واحدة؛ لأنّ ممارسة القراءة إسهام في التأليف"[3].

لكن ما يشدّ الانتباه في الآثار الأدبية المستهدفة – بيداغوجيا – إنها ليست كلها وليدة مرحلة تاريخية واحدة، ومن هنا يجب أن يغلب طابع التنويع في اختيار النماذج من مراحل تاريخية متباينة، مع العلم أنّ النص المنقول من عصر إلى عصر، حسب الظروف والأحوال الزمنية والمكانية، يفقد كثير من خصائصه الفنية والجمالية والمعنوية، ومن ثمّ، قد تتعالى الدعوات المخلصة كثيرا، والمغرضة قليلا، هنا وهناك، تلهج بحجّية أنّ النص القديم قد يشكّل ارتدادا ورجعية، من حيث إنّه لا يوفر القيمة الجمالية، والأسس البلاغية التي تستجيب فيها الحال للمقال.

---

[1]– البيان والتبين: الجاحظ، 1/ 138.

[2]– ملاحظة عن الجدل في النقد الأدبي: جيرمي هاوثورن، مجلة العرب والفكر العالمي، ص: 132.

[3]– مناهج النقد المعاصر: صلاح فضل، ص: 129.

إن هذا الحكم مقبول من الناحية التاريخية، لكن يغفل أصحابه أنّ النص القديم، حينما يوضع موضع مساءلة جذرية، ويخضع إلى قراءة فاحصة، يسْهم، بصورة مباشرة، في استدعاء الصور مثلما ارتسمت في الذاكرة التاريخية، كما يسْهم في مساءلة القيم والمناهج، والمعايير، والأحكام الجمالية. ومن ثم، فهو يفتح باب الاجتهاد – من جديد – أمام بلاغة الكلام بوصفه شكلا إبداعيا متكاملا، مما يجعلنا ننحو مع (رولان بارت) منحى أنّ: النصوص الفنية الرائعة تجعل للمكتوب بدايات لا تنتهي، إنها تكوّر المكتوب على نفسه، فهو لا يزال بها يدور حتى لكأنّ كلّ بداية تظل فيه بداية[1].

إنّ هذا المعني يرمي إلى سرّية المضمون المشكل للخطاب الأدبي، بشكل عام، وهذا من أسرار أوجه البلاغة التي يحتفظ بها النص، والتي لا يبوح بها خطرة واحدة، بل يشكل بلاغة بلا نهاية؛ كون "النص – في حدّ ذاته – نسيجا من الوحدات اللغوية المتشابكة فيما بينها، تشكّل نسيجا متناولا في سياق معين، غايته الإحالة إلى دلالات مفتوحة لا تنتهي إلى دلالة بعينها"[2].

ثم إنّ النصوص – حسب أبي جمالية التلقي هانس روبيرت ياوس – يتمّ تغييرها بسبب السبل التي يتم التلقي فيها في كل مرحلة. ويستخدم ياوس مصطلح "أفق التوقعات" للإشارة إلى المعايير التي يستخدمها القراء في أي مرحلة معينة، عندما يريدون أي عمل من أعمال الأدب.

وقد يكون من الممكن نشدان هذا الأفق التوقعي عند تقييم: كيف يمكن لعمل أن يُفسَّر عندما يظهر للمرة الأولى؟. لكن هذا لا ينشئ معنى دائما ونهائيا[3]. فإذا سلمنا بهذا الرأي، نقيس كل مستويات القراء، وفنياتها المتصلة بالنص، في الشكل والمضمون على حدّ سواء.

إنّ هذا المعني يدفعنا إلى الإقرار بأنّ: القارئ المبدع هو الذي يتحسّس إشارات النص القديم، فيبعثها في ثوب جديد. تلك الإشارات تنبئ بنواح شتى، تتّصل بقيمة النص من حيث هو رسالة أدبية، وأنّ بلاغتها تكمن في جماليات الظاهر والباطن، ضمن كميائية فاعلة ومتفاعلة بين النص والمتلقي. هذا المتلقي الذي نقصده – هنا – هو (الطالب الجامعي)، الذي يجب أن ينموَ مع هذه الروح القرائية المؤمنة بأن النصوص لن تصل كمالها كتابة، ولن تبلغ تمامها قراءة.

هذا ما نعثر عليه ضمن اهتمامات (**إيزر**) أيضا، الذي اهتم "بالعلاقة بين النص الأدبي والقارئ، من منظور تداولي، استحضر من خلاله معطيات فلسفة اللغة، واللسانيات التداولية. فالنص – بالنسبة إليه – تشكيل

---

[1]– Roland Barth critique et vérité, p:11.

[2]– محورية النص الأدبي: حبيبة مسعودي، ص: 31

[3]– النظرية الأدبية: ديفيد كارتر، ص: 93.

تخيّلي لعناصر منتقاة من الواقع، يتم تغييرها عن طريق الاختزال والتحويل، مما يجعلها تنفصل عن سياقها الأصلي؛ لتدخل في علاقات جديدة، يسْهم القارئ في رسمها، وتنظيمها، وتأويلها في نهاية المطاف[1].

فالبلاغة – إذاً – لا تتوقف عند العناصر الشكلية بقدر ما تتوقّف، بشكل مكثّف، عند كل زاوية من زوايا النص (داخله، وخارجه)، مما تتطلّب من المتلقي (الناقد) وسائل فنية، تجعله مؤهلا لأن يكتشف بعضها. وقد تسمح له بأن يتجاوز عن بعضها.

أننا لسنا بصدد التنظير، وإنّما نرغب في تحديد الإطار المناسب الذي نصنّف بمقتضاه النصوص الموجّهة للدراسة البلاغية في مراحل التعليم الجامعي، دونما إهمال للمراحل السابقة المضطلعة بتعلّم فنون البلاغة العربية، ومعرفة تاريخ تطوّرها.

وعلى هذا الأساس، فإنّ النصوص التي تُقترح في العملية التعليمية (ينطبق على كل مراحل التعليم ومستوياته)، تقوم على علاقات متنوعة، سواء أكانت نصوصا أدبية أم نصوصا علمية، لذلك، يجدر بنا – والحال هذه – أن نميّز بين أسلوبين من أساليب التوصيل والتواصل:

الأسلوب اللغوي النفعي: هدفه: الاتصال؛ أي: توصيل مضامين الرسائل إلى المتلقي، وتتّسم هذه الأساليب اللغوية بطابعها العلمي، بمقتضى العلاقات الذهنية، وهي – في العادة – متنوعة بتنوع مجالات الحياة. ومن مميزات هذا الأسلوب، الذي يصادفه المتعلم في مختلف مراحل عملية التعلّم، والذي يستمر حتى المرحلة الجامعية، بحيث لا يراعى فيه الجانب البلاغي، كون الألفاظ مطلوبة لمعانيها.

فوظيفة هذا الأسلوب – إذاً – وظيفة تبليغية، إشهارية، إعلامية، لكن حجم هذا الأسلوب، وكثافته التلقينية، تضبط – بشكل أوضح – في أثناء الدرس اللغوي الجامعي، على اعتبار أن التخصّص، وطبيعة الوحدات التعليمية، تفرض رؤية بيداغوجية خاصة، بحسب النص المراد تبليغه، والأهداف المرجوّة منه في أقسام اللغة العربية وآدابها.

الأسلوب الفني البلاغي: هدفه: غرس المفاهيم الجمالية، والمعاني الحضارية للغة، وقد نربطه بهوية الخطاب، وانتمائه اللغوي. نصادف هذا الأسلوب في المراحل المتقدمة من التعليم، ويخضع إلى المقاصد التربوية، حيث النماذج الأخلاقية، والنصوص الدينية الهادفة مقصودةٌ لمضامينها أكثر من أسلوبها. فتكون مقياس الاختيار فيه بقدر جماليتها الأسلوبية، ونصاعتها اللغوية، وهي بذلك تجمع بين الهدف التربوي والهدف الجمالي.

لكن، على الدرس البلاغي الجامعي أن يتجاوز عملية التواصل والتوجيه إلى ما هو أعمق وأبلغ، إذ يجب أن يرتبط بالفكر والذوق معا، وأن يخضع لعملية لغوية دقيقة؛ تخترق ظاهر النص، وتتغيّا بنيته العميقة، ذلك أنّ "الدراسات الأسلوبية الحديثة، قد فتحت أفقا جديدا للتعامل مع النص، تعتمد، بشكل أساسي، على رؤية أكثر

---

[1]– بلاغة الفعل الإنجازي: حورية رزقي، مجلة الباحث، ع.5، 2010، ص: 163.

شمولية، حيث تنظر إلى النص الإبداعي على أنّه وحدة لغوية متكاملة، نفثتها ذات مبدعة في فترة آنية، ضمن إطار المفهوم الإبداعي للحظة النفث، التي تهيمن على المبدع"[1]. وهذا يعني: أن النص خرج عن السيطرة المعيارية التي درجت عليها دراسة الآثار الأدبية، خاصة في المراحل الأولى من عمر عملية التعلّم.

لذا، سيكون من الأنجع، عند اختيار النص، أن نحيط بكل معانيه، وتمثّل كامل قواعده، قبل التخطيط له، فنتصور الوحدات الإجرائية المنهجية التي توفر للمتلقي غير العادي، ونعني بهذا التخصيص: المثقف الجامعي الذي حاز قدرا من الذوق والتمييز الفني، حيث نستفز فيه الانفعال الجمالي، ثم نترك له حرية تكوين الفكرة، وتشكيل الموقف. بهذا، نسعى إلى صنع متلق تنمو فيه حرية القراءة، فتتكون لديه تلك الشخصية المستقلة، من حيث الموقف، بعيدا عن عاطفة الأنانية والانفعال غير المبرّر، فنكسبه تلك الحصانة التي تعصمه من أن ينقاد إلى الأوامر القسرية، التي تعتلق بمرجعيته الجمالية، وعاداته الذوقية، بحجة: قداسة الكلام المبدع أو المكانة المثالية للمبدع. بذلك نتقدم إلى الأمام؛ فلا نتعامل مع النص من خارجه، بل نستحضر فيه تلك العلاقة المفروضة بين النص والمتلقي.

بيد أنّه يجب أن تكون عملية البرمجة من الدقة والمهارة ما نجعل من الدرس البلاغي الجامعي أنموذجا للدرس الذي يصنع متلقيا، بالشروط التي أومأنا إليها، وبحكمة بيداغوجية، تتضافر فيه جهود علماء التربية، وعلماء النفس مع مبدعيه، ونقاده؛ فتخضع النصوص – عندئذ – إلى مقاييس محدّدة قد تواطأ عليها أهل الاختصاص.

إنّ المتلقي (الجامعي) هو الذي ينقل هذا النص من مرحلة الوجود بالقوة إلى مرحلة الوجود بالفعل؛ "فالنص بناء متكامل، والمعنى بنية منجزة في داخله. والقارئ هو الذي يقوم باستكشاف هذه البنية المستترة، المحمّلة بإشارات النص نفسه"[2]. ذلك أنّ السلطة للمتلقي الذي يشكلّ الرؤية ويعطي للمنتج أهميته القصوى، فلم "يعد هناك من إمكانية للتعامل مع النص إلا بوصفه: نصا بلا حدود، شكلا لا يحدد الأشياء، لكن يتشكل فيها."[3]

هذه المفاهيم التي تستهدف النص هي – في الأساس – مفاهيم تربط بحتمية استقلالية البلاغة؛ والبلاغة بهذا المعنى، لن تكون استعراضا لمهارة حشد اللغة الخطابية، لكنّ أهمّيتها تكمن في ما يكتسبه المتلقي نتيجة علاقته الحميمة مع النص، وبما يحمله من سلطة القبول والرفض، ومكنة التمييز والتقييم. هذه الصلاحية تجعل منه منتجا ثانيا للنص، ما دام في إطار المقاييس والأسس الفنية المكتسبة في أثناء عملية التّعلم.

---

[1]– ثنائية النص: عبد العزيز السبيل، عالم الفكر، ص: 63.

[2]– سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، تنظر المقدمة، ص:11.

[3]– الكتابة والتناسخ: عبد الفتاح كليطو، ص: 9.

إن بلوغ هذه العتبة من قراءة النصوص، يتطلب — لا محالة –التعمق في النظرة، والمكنة في المنهج، والوعي بالمقروء، وتوسّل أدوات قرائية جديدة أو متجدّدة، تنطلق، في تحليلها، من النص، وتعود إلي النص، كما يتطلب الوقوف على الأثر الفني تلوين الأسلوب بلون خاص، – وهي اللمسة الإبداعية عند القارئ – يجعل من النص صورة متكاملة، تزخر بالتلوينات البلاغية، عبر مستويات متداخلة ومتكاملة بين النحو والبلاغة، والدلالة، حيث تجتمع هذه المستويات لخدمة النص، واستجلاء دلائليته، وإبراز قيمته الفنية.

إنّ البلاغة طاقة تعبيرية تمدّنا بها اللغة، تساعد على استكناه المعاني، وتحديد المقاصد، كما تساعد على توصيل المعلومات، وتصوير المعاني فنيا، مما يرتدّ على الذوق الفني، فيجعلنا نتذوق ما نقرأ تذوقا جماليا ساميا، يرقّي فينا ملكة الشعور بالجمال، والقدرة على إصدار الأحكام. غير أنّ الوصول إلى هذا النص النموذجي، يتطلب شروطا فنية إبداعية بلاغية؛ تعتمد على: قدرة اختيارية، تسهم في صياغة بلاغة حربائية التلوّن، زئبقية التشكّل والتأقلم، تتماهى في المقروء، وتصل القراءة الآنية بالقراءات السابقة، وتبني، في تناصية حاذقة، أنموذجا للقراءة اللاحقة.

فإذا فقهنا هذه المعادلة بشكل فني متحرّر من كلّ تعصب قرائي، أمكن تجاوز تلك التجاذبات المتصارعة حول كثير من المفاهيم المتصلة بين القديم والحديث، وقبضنا على أجوبة تلك الأسئلة التاريخية المحفزة على التثوير والتفجير، فلا نبقى رهائن لنمطية محنطة، تسلمنا إلى أحكام عقيمة، قد تذهب بالدرس البلاغي إلى غير رجعة.

ومن أجل بلورة هذه الرؤية، يمكننا اقتراح بعض الأسس، التي من شأنها أن تتحقّق تلك النظرة الاستشرافية لمستقبل الدرس البلاغي في جامعاتنا، وهي رؤية متساوقة مع فكرة التقويم المستمر، ومنفتحة على الرأي والرأي الآخر.

1) تثبيت نصوص مكتملة، من حيث الصورة الإبداعية؛ أي: الابتعاد عن المقطّعات والمقتطعات التي – في رأينا – لا توفر الصورة البلاغية الكاملة، ولا تؤدي الوظيفة الإبلاغية المنشودة. هذه الإستراتيجية تحفظ للنص هيبته، وتوفر للمتلقي أسس الحكم والتقييم.
2) قراءة النصوص قراءة واعية، وفق مقتضيات المناهج الحديثة التي تنطلق، في تحليلها، من النص، وليس من الجملة، وهذا يتطلب وعيا نقديا من المتلقي والمبرمج.
3) اعتبار الدرس البلاغي وسيلة إلى فهم النص، وتذوقه، ومعرفة أهدافه؛ أي: إخراج البلاغة من ذاتيتها، كعلم قائم بذاته، إلى حيز العمل والتطبيق. مما يجعل الطالب المتلقي مشاركا فعالا في تحديد قيمة النص.

4) تنويع النصوص من حيث الأجناس الأدبية، ومن حيث مسايرتها الظروف التاريخية، ومن حيث القيمة الفنية، حتى نوفر للطالب المتلقي فسحة من التنوع؛ فلا نحصره في زاوية واحدة، تسوّغ لديه إسقاط الأحكام الجاهزة على النصوص المتشابهة.

5) إخراج النص البلاغي من وضعية البنية التاريخية الجامدة إلى نص يوفر للقارئ إجابات متعددة عن تفاصيل متنوعة متصلة بلحظة وجوده في زمن القراءة، ومن ثم، تنمية ملكة الربط والتحليل، والتنويع البلاغي والإبلاغي.

6) التحوّل إلى مستوى الفهم، والانشغال الموجه، الذي يفسح مجال التحليل والتأريخ، لسدّ الفجوات، دون أن يكون الخطاب الحديث عَائقاً يسدّ الطريق، بترسانة من العتاد النظري الذي يُعرقل السير بدل أن يَفتحه. فالغاية: تكوين شخصية متلق فذ يرفض الإمّاعية، أو الاقتفاء غير المؤسس[1].

7) ولكي تستجيب النصوص لعملية استنباط القواعد البلاغية، باعتبارها طاقات تعبيرية كامنة في اللغة، لا بّد من الوقوف عليها وتمثّلها، والنسج على منوالها، بدل حفظها، وإجراء الامتحانات عليها، ذلك أنّ المصطلحات البلاغية – في حد ذاتها – طرق لأداء المعاني، وطاقات تعبيرية متنوعة، لا بدّ من التدرب عليها، والتعمّق في فهمها، ومن ثمّ، تفهّم عمقها.

8) الأخذ بعين الاعتبار، في أثناء اختيار النصوص، تلك الملابسات والظروف التي أحاطت بها عند النشأة، لأن ذلك يوفر قدرا من التفهّم عند التواصل، ويسهم في جودة الاستنتاج الذوقي والجمالي..

9) ربط أجزاء النص بعضها ببعض، من حيث هي علاقات نحوية، ودلالية، وبلاغية.. قصد فهم الصورة البلاغية في سياقها الذي تتداخل فيه العلاقات وظيفيا بشكل منظم، يؤلف التركيب الكليّ للرسالة الإبداعية.

في الختام:

عسى أن يكون هذا العمل قد فتح أبوابا للنقاش والاستثمار حول البلاغة العربية، ومدى فاعلية ما نقدمه لطلبتنا في الجامعة، ونحن على يقين، أنّ المخلصين في مجال اللغة والأدب، هم دائبو البحث عن أنجع الطرائق التي تجعل من البلاغة وسيلة للمعرفة، وعنوانا للجمال، ومجالا للبحث المتجدد.

---

[1]– ينظر: البلاغة العربية (الأصول والامتدادات)، محمد العمري

مصادر ومراجع البحث:

1. الجاحظ: البيان والتبين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. 7، 1998.

2. جيرمي هاوثورن: ملاحظة عن الجدل في النقد الأدبي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الأول، 1988.

3. حبيبة مسعودي: محورية النص الأدبي، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط.1، 2010.
4. حورية رزقي: بلاغة الفعل الإنجازي، مجلة الباحث، مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة عمار ثليجي، الأغواط (الجزائر)، عدد: 5، 2010.
5. ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، تر: باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق، ط.1، 2010.
6. صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، المغرب، ط.1، 2013.
7. ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1
8. عبد العزيز السبيل: ثنائية النص، عالم الفكر، العدد الأول، 1998.
9. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: أمين الخولي،القاهرة، 1960.
10. عبد الفتاح كليطو: الكتابة والتناسخ، تر: عبد السلام بنعبد العالي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط.1، 1985.
11. ابن قتيبة: غريب الحديث، تح: رضا السويسي، وزارة الأوقاف العراقية، 1977.
12. محمد العمري: البلاغة العربية (الأصول والامتدادات)، ط.1، 1998.
14. Roland Barth: critique et vérité, édition de seuil, Paris, 1966.